

حريق لندن الكبير هو حريق ضخم اجتاحت المناطق الرئيسية في مدينة لندن الإنجليزية، واستمر من يوم الأحد الثاني من سبتمبر سنة 1666 حتى يوم الأربعاء الخامس من الشهر نفسه. هدمت النيران مدينة لندن القديمة التي بُنيت في القرون الوسطى، والتي يحيطها سور لندن الروماني الأثري. كما كادت النيران أن تلحق بحي وستمنستر الأرسقراطي، وقصر الملك تشارلز الثاني (قصر وايت هول)، وغالبية المناطق العشوائية الفقيرة. كذلك التهمت النيران حوالي 13000 منزلاً، و78 كنيسة رعية، وطالت غالبية مباني المدينة الخاصة بالهيئات والسلطات الرسمية. تشير التقديرات أن الحريق تسبب في هدم مساكن سبعين ألف من السكان، البالغ عددهم حينها ثمانين ألفاً. كما أنه لم يُحدّد عدد الضحايا من الوفيات، إذ بلغت حالات الوفاة المُثبتة المسجلة ستاً فقط. غير أن هذا الزعم فُند مؤخراً استناداً إلى أن حالات الوفاة من بين الفقراء وأفراد الطبقة الوسطى لم تسجّل؛ إلى جانب أنه من الممكن للحرارة الكبيرة المنبعثة من الحريق أن تتسبب في تحول العديد من الضحايا بالكامل إلى رماد، ما يحول دون التعرف على أية بقايا لهم. لم يمر وقت طويل بعد منتصف الليل يوم الأحد الثاني من سبتمبر حتى اشتعل الحريق في مخبز توماس فارينور (أو فارينوي) (بالإنجليزية Thomas Farriner) في شارع بادينج لين، وما لبث أن انتشر غرباً عبر مدينة لندن. ويُعزى تعطّل إجراءات مكافحة الحرائق، والتي تمثلت وقتها في إقامة حواجز للنار عن طريق أعمال الهدم، إلى تردد السير توماس بلودورث، عمدة مدينة لندن حينها، في اتخاذ قرار مناسب للموقف. وما إن صدرت أخيراً أوامر بإجراء أعمال هدم واسعة النطاق مساء الأحد، حتى كانت الرياح قد قامت بالفعل بتعزيز النيران وتحويلها إلى عاصفة نارية كانت كفيلة بأن تقهر الحواجز. إذ اندفعت النيران يوم الاثنين إلى قلب المدينة. شاعت في هذا الوقت الاضطرابات في المدينة؛ حيث انتشرت شائعات تقول بأن مجموعة من الأجانب المشتبه في أمرهم تقوم بإضرام الحرائق، واشتبه الفقراء وسكان الشوارع أكثر ما اشتبهوا في الفرنسيين والهولنديين، أعداء إنجلترا إبان الحرب الإنجليزية الهولندية الثانية التي كانت رحاها لا تزال دائرة آنذاك، ما نتج عنه تعرض مجموعات كبيرة من المهاجرين للعنف، كانت النيران قد انتشرت في أغلب أجزاء المدينة، وحطمت في طريقها كاتدرائية القديس بولس، وتخطت نهر فليت لتهدد بلاط الملك تشارلز الثاني في وايت هول، في الوقت ذاته الذي تظافرت فيه جهود مكافحة الحرائق. ويُعزى نجاح عمليات إخماد الحريق إلى عاملين رئيسيين هما: الانخفاض الشديد في حدة الرياح الشرقية، وكذلك استخدام حامية برج لندن البارود لتكوين حواجز نارية فعالة من شأنها أن تحول دون انتشار النيران بصورة أوسع في اتجاه الشرق. خلف الحريق آثاراً اجتماعية واقتصادية بالغة؛ فقد شجع الملك تشارلز الثاني السكان على النزوح من لندن والإقامة في مناطق أخرى، وذلك بسبب خوفه من ثورة اللاجئين الذين نهبت ممتلكاتهم عليه، وعلى الرغم من هذا الاقتراح وغيره من الاقتراحات الخطيرة، أعيد بناء مدينة لندن طبقاً لخطة الطرق ذاتها، والتي كانت قيد الاستخدام قبل اندلاع الحريق. المناطق التي طالها الحريق مُظلّة باللون الوردي. أصبحت لندن المدينة الأعظم اتساعاً في بريطانيا، كما بلغ تعداد سكانها حينها ما يُقدّر بنصف مليون نسمة. وقد وصفها الكاتب الإنجليزي جون إفلين، مقارناً بينها وبين مدينة باريس في بهائها الباروكي آنذاك، بأنها عبارة عن «مجموعة مزدحمة من البيوت الخشبية غير الاصطناعية، كما أشار إلى وجوب الحيلة مما تشكله المباني الخشبية من خطر الحريق، ونبه كذلك على مشكلة الازدحام. أراد الكاتب الإنجليزي من وراء وصف المدينة بـ «غير الاصطناعية» الإشارة إلى كونها معدومة التخطيط المسبق، وكذلك توحى بمظهر زائف وغير مكتمل لل عمران، وهي نتيجة طبيعية للنمو السكاني والتمدد العمراني. وإذ أن لندن عاشت أربعة قرون كمستعمرة رومانية، أخذ معدل ازدهام المدينة يتصاعد في زيادة مطردة، داخل الحائط الحامي للمدينة. كذلك لم يتوقف الأمر عند الحائط، بل انتشر التمدد خارج أسوار المدينة، ليشكل مجموعة من المناطق شديدة العشوائية، كما امتدت المدينة كذلك لتضم مدينة ويستمنستر المستقلة. لم يكن قوام المدينة (تلك المساحة التي يحدها حائط المدينة من جهة، ونهر التايمز من جهة أخرى) يشكل إلا جزءاً فقط من لندن، 833 كيلومتر مربع (أي 1.1. ويبلغ عدد سكانه ما يقرب من الثمانمائة ألف، كما أحاطت بالمدينة حلقة من الضواحي الداخلية، والتي عاش بها أغلبية اللندنيين (أو سكان لندن). شكلت المدينة آنذاك القلب التجاري للعاصمة، إذ ضمت أكبر أسواق إنجلترا وأكثر موانئها نشاطاً، والذي وقع بالكامل تحت قبضة الفئات التجارية والصناعية من المجتمع. عافت نفوس الطبقة الأرسقراطية عن العيش في المدينة، وآثروا الإقامة إما في الريف الواقع وراء الضواحي، أو في حي وستمنستر القصي (منطقة وست إند في وقتنا الحاضر)، بالقرب من بلاط الملك تشارلز الثاني في وايت هول. وكذلك فضل الأثرياء العيش بعيداً عن المدينة الملوثة، وخاصة بعدما اجتاحت المدينة طاعون دبلي المدمر في سنة 1665، بلغ التوتر أقصاه في العلاقة بين البلاط الملكي والمدينة في ذلك الوقت؛ حيث كانت المدينة معقل للجمهوريين، التي استمرت من سنة 1642 إلى سنة 1651. ولم تزل المدينة الثرية ذات النشاط التجاري الواسع تشكل تهديداً مستمراً للملك تشارلز الثاني، وهو ما بدا جلياً في الثورات الجمهورية العديدة،

التي اندلعت في أوائل الستينات من القرن المذكور. وقد شارك قضاة المدينة في الحرب الأهلية، ولم يكن بمقدورهم -إذ ذاك- نسيان كيف أن قبضة الملك تشارلز الأول الصلبة على مقاليد السلطة المطلقة قادت الأمة إلى حافة الانهيار؛ ومن هنا جاء تصميمهم على الوقوف حيالاً أي ميول أخرى من النوع ذاته قد تساور وريثه، وجاء رفضهم تاماً لوعود تشارلز الثاني لهم بالجنود والموارد، في الوقت الذي هدد فيه الحريق الكبير المدينة. كان نزول القوات الملكية غير المرغوب فيها إلى الشوارع بمثابة قنبلة سياسية، وعندما تولى تشارلز الثاني أخيراً زمام الأمر من عمدة المدينة، كان الحريق قد خرج بالفعل عن السيطرة. رسمها الفنان كلاس فيشر. لاحظ وجود شقق سكنية على جسر لندن (أقصى اليمين)، وهي بمثابة فخ واضح تحسباً لحالات الحريق، غير أن أكثرها تدمر في حريق سابق في سنة 1632.